بائعة البنفسج

للكاتب الفرنسي هنري بوردو

بقلم الأستاذ صلاح الدين كامل

— الجو صحو اليوم . هيا بنا نعود سيراً على الأقدام ، ففي ذلك نوع من الرياضة وقلما نقوم الآن بشيء منها

اقترح ذلك صديقي الروائي الكبير بيير لجنيير ثم نادى سائق سيارته فأمره بالانصراف . وقد كان هذا عقب تناول العشاء في أحد المطاعم حيث اجتمع فريق من الأدباء المعروفين يتندرون بذكر العقبات التي صادفتهم في خطواتهم الأولى

ولدى خروجنا من المطعم أنا وصديقي بيير ، وكنا قد تأخرنا عن زملائنا ، اعترضتنا فتاة صغيرة تبيع البنفسج ، مقدمة لنا باقاتها الناضرة ، ملحة أشد الإلحاح في أن نشتري من بضاعتها ... كانت فتاة هزيلة شاحبة محمرة الأنف والعينين ، ترتدي ملابس خفيفة لا تكفي لحمايتها من البرد . ولقد ذكرت حين رؤيتها قول فرنسوا كوبيه في إحدى قصائده الرائعة ، يصف هذا الفريق من الفتيات التعسات : « أولئك اللائي يمتن من الشتاء وهن يقدمن الربيع للناس ! »

وقد استثارت تلك الفتاة شفقتنا . أحسسنا بميل شديد إلى التصدق عليها ، وخاصة في وقت قد امتلأت فيه بطوننا بعد عشاء فاخر . إلا أنه كانت هناك عقبة تعترض تنفيذ تلك الرغبة الشريفة . كان علينا أن نفتح معاطفنا وسترتنا ، وهي حركة مضجرة ثقيلة على النفس . ولقد كان الخياطون فيما مضى يساعدون على الإحسان بأن يضعوا للمعاطف جيوباً صغيرة من الخارج توضع فيها العملة القليلة القيمة من الفضة والبرنز ، فكان يسهل على الإنسان إخراج هذه النقود دون مشقة . أما الآن فبكل أسف لم يعد هذا الجيب الصغير يتفق مع « المودة » فحذف ؛ وليست رغبة الإحسان قوية في النفوس بحيث تدفع الإنسان لكي يفك أزرار ملابسه باحثاً عن كيس نقوده فيفتحه وبعد ذلك يقفله ويعيده إلى مكانه ثم يزرر ملابسه ثانياً .

— بخمسين سنتيماً فقط باقة البنفسج الجميلة

لم تكن تلك الفتاة المسكينة لتفهم أن المسألة ليست مسألة نقود وإنما يحتاج الأمر إلى حركة أو سلسلة حركات مقلقة ، فاستمرت في عرضها مخفضة الثمن :

— بعشرين سنتيماً ! ... بعشرة سنتيمات !

ولقد كان المنظر الذي رأيته بعد ذلك مما أدهشني أنا أعرف بيير لجنيير من زمن وأعرف فيه منتهى الكسل . فهو فيما عدا عمله وهو جالس إلى مكتبه لا يطيق شيئاً يكلفه أقل مشقة أو عناء . ولذا كان عجيباً حقاً أن يقف على الطوار فيخلع قفازه ويفك أزرار معطفه وسترته ثم يخرج كيس نقوده فيأخذ منه جنيهاً يضعه في يد تلك الباعة الصغيرة !

قالت الفتاة في مسكنة : « ولكن ليس معي لأعطيك الباقي يا سيدي ! »

— لا أريد منك باقياً

فنظرت إليه مشدوهة ثم قالت بعد أن بلعت ريقها :

— وهل تريد السلة كلها يا سيدى ؟

— كلا ، كلا ، باقة واحدة

— اختر يا سيدى الباقة التى تروقك

وما بعدنا بضع خطوات حتى تذكرت الفتاة أن الدهش قد أذهلها فلم تشكر لمن أحسن إليها ، فلحقت بنا وألقت بقية البنفسج تحت أقدامنا وهى تهمهم : « شكراً يا سيدى ، شكراً يا سيدى ، سأذهب الآن لتناول الطعام ! » ثم أطلقت لساقيها الريح . لقد فرغت من عملها اليومى وفرغت منه على أحسن حال

والتفت إلىّ صديقى بيير يفسر لى سرّ تلك النزوة ، فقال :

— لا تدهش لهذا السخاء ، إنه دين كان علىّ أن أؤديه

— دين ؟ !

— نعم . فيما مضى ، كان لباتمة زهور صغيرة مثل هذه تماماً الفضل كل الفضل فى إنقاذى من فتور الهمة واليأس . ألا يساوى ذلك أكثر من عشرين فرنكا ؟ لقد تذكرت ذلك منذ لحظة ونحن فى المطعم نتحدث عما صادفنا فى خطواتنا الأولى من عقبات . وكان من حظ هذه الفتاة أن انتفعت من وراء تلك الذكرى

وبطبيعة الحال سألته الإيضاح فلم يتأخر، قال:

— كان ذلك منذ سنوات لست أذكر عددها بالضبط . كنت قد انتهيت من كتابة أول مؤلفاتى . لا تسأل عن اسم هذا الكتاب فإنه لحسن الحظ لم يظهر قط ، ولو أنى كنت أعتقد فى حينها أنه كتاب نموذجى ! وقد اعتنيت بكتابة نسخة منه بنفسى بخط واضح ، إذ فى ذلك الوقت طبعاً لم يكن عندى من النقود ما يسمح باستئجار نساخ . نسيت أن أقول لك إن أسرتى كانت قد تخلت عنى لسخطها على اشتغالى بصناعة الأدب ، وإن الجميع كانوا يأملون أن أعود صاغراً حين ترغمنى الحاجة . ولقد صرفت خلال العمل فى إتمام كتابى هذا كل ما كان مدخراً لدى تقريباً ؛ ولكنى كنت مطمئناً إلى أن تلك الصحائف التى تعبت فى تحريرها سوف تفتح أمامى أبواب الشهرة والثروة على مصراعيها ! حملت الكتاب ونفسى مفعمة بالثقة إلى أكبر ناشر كان معروفاً فى ذلك الوقت . . . إلا أنه — ويا للخيبة المرة — رده إلى بعد قليل مع سيل من الانتقادات القاسية . فى تلك اللحظة تمنيت لو أتيح لى أن أخنق هذا الناشر خنقاً ، إذ لم أفهم فى حينها قيمة ما أبداه من ثاقب الآراء كما لم أقدّر عطفه وتشجيعه الذى دفعه لقراءة روايتى قراءة سريعة وإعطائى درساً فى التأليف القصصىّ ! . . . سألنى بصوته الخشن : « كم عمرك ؟ » أجبت : « ثلاث وعشرون سنة » فعلّق على ذلك بقوله : « إن الإنسان لا يكتب روايات قيّمة قبل سنّ الثلاثين . وعند بلوغك هذه السن سوف تكتب شيئاً يقرأ » وقد استمر فى حديثه موجهاً إلىّ كثيراً من النصائح الثمينة التى اكتسبها من تجاربه ، بينما كنت بينى وبين نفسى أسخط عليه وألعنه ... لقد كنت آخذ كلامه على اعتباره هجواً لا نصحاً ! إن الإنسان فى سن الثالثة والعشرين يعتبر ابن الثلاثين رجلاً عجوزاً أو نصف عجوز ، يتصوّر أنه فى مثل هذه

السنّ المتقدمة سوف يكون شهيراً قد ذاع اسمه بما أخرج من كتب رائجة ! وبطبيعة الحال سحبت روايتي وقدمتها إلى ناشر آخر . ولقد أبقاها هذا الناشر عنده ستة أشهر ثم ردها معتذراً في كلمات رقيقة : « أنت شخص ذو مواهب ، مواهب من الطبقة الأولى ، ولكن هناك أسباباً خاصة تعوق طبع روايتك في الوقت الحاضر . ونخشى أن يطول انتظارك قبل أن تسمح الظروف بطبعها » قلت أحدّث نفسي: « ها هم أولاء أناس ذوو أدب ورقة وذوق فني ، أي خسارة أن تقف الظروف دون قيامهم بطبع كتابي ؟ » وعند ما عدت إلى غرفتي أقلّب أوراق مؤلفي الثمين ، تبين لي بجلاء أن هؤلاء القوم الظرفاء المقدّرين لمواهبي لم يفتحوا الكتاب ! وقصدت إلى دار نشر ثالثة أقل مرتبة من الدارين الأولين ، فكان نصيبي الفشل أيضاً . وبعد ذلك بدأت الطواف بالناشرين واحداً بعد واحد ! وفي خلال ذلك الوقت كنت أعطي دروساً في قواعد اللغة والتاريخ حتى أقوم بأود حياتي ، ولو أني كنت محتفظاً للآداب بكل قلبي باذلاً في سبيلها جلّ وقتي وجهدي . ولقد صادفت فشلاً إثر فشل ، ولكني تحملت ذلك بصبر وجلد .. إلى أن كانت آخر مرة إذ صدمت صدمة مخجلة مزرية بعثت إلى نفسي الكلال واليأس ! كنت قد ذهبت بكتابي إلى أحد ناشري الدرجة الثالثة فصرّح لي بعد تصفحه بأنه رفض إخراجه حتى ولو تكفلت أنا بمصاريف الطبع ، وقد خرجت من هذه الزيارة و كنت أعتبرها ملاذي الأخير مطعوناً في كبريائي وثقتي بنفسي، وهو ما لا غنى عنه لأديب يريد أن ينتج ويخلق . أحسست بنفسي خائر الهمة أفكر في الهرب من الميدان والانزواء في أحد بلاد الريف حيث أشتغل في عمل عادي يضمن لي العيش في هدوء ، وبينا أنا أسير في الطريق على غير هدى ، قادتني قدماي إلى هذا المكان أمام المطعم الذي تعشينا فيه الليلة ، وإذا ببائعة بنفسج صغيرة مثل تلك الفتاة التي صادفناها الآن تضع تحت أنفي باقة من باقاتها ، فأنهرها رافضاً الشراء . إلا أني بحركة آلية لا أدري علتها قد تتبعتها بنظري ، فإذا بها تعرض بضاعتها على آخر ثم آخر دون جدوى ، وإذا بي أجد تسلية في مراقبتها ! كم مرة يجب أن تعرض بنفسجها في سبيل عشرة السنتيمات التي سوف تحصل عليها ؟ ! تتقدم لهذا ثم لذاك ولا أحد يقف أو يسمع لها ... الكل يسيرون مسرعين ، إذ الكل ذاهبون لتناول العشاء ... بينا هي قد تكون جائعة أحوج ما تكون إلى الطعام، ومع ذلك فهي مثابرة على عرض زهورها دون ما ملل أو كلال وفوق هذا فلكيلا تنفر منها المشترين ، تجدها تبتسم محاولة أن تكسب وجهها المكتئب الحزين تعبير رقة ودعة ، وانتهيت إلى أني أخذت أعد المرات التي يقابل عرضها فيها بالرفض، أتعرف إلى أي عدد وصلت؟

— ثلاثين أم أربعين !

— كلا ، بل مائتين وخمسين ! وعند ما أقول مائتين وخمسين فإني أعني أن الواحد والخمسين بعد المائتين كان إياي ، إذ عدت إلى الفتاة فأخذت منها باقة وأعطيتها خمسين سنتيماً ، وثق بأن هذا المبلغ كان أكثر بالنسبة لي وقتئذ من الجنيه الذي دفعته الآن . كان مبلغاً جسيما ، ولكنها كانت تستحقه. لقد محت ما كان قد خيّم على نفسي من اليأس ، وعنها تلقيت درساً في المثابرة كان له في حياتي أثر بعيد

صلاح الدين كامل